ثقافة النشء



مسلمون أوائل

١٠

عبد الودود الأمين

نصير الفقراء

أبو ذرّ الغفاري

دار البلاغة

دار الهادي



ثقافة النشء







نصير الفقراء

أبو ذرّ الغفاري

عبد الودود الأمين

دار البلاغة
دار الهادي



الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار الهادي - دار البلاغة - للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس ٧٧٧ MCS٢٠ - ٢١٥٩٧ بلاغ.
ص ب: ٢٥/٢٨٦ + ٢٥/١٦ غبيري - بيروت - لبنان.

رسوم: جمال درويش

أرخى الليلُ سدوله وألقى عباءتـه السوداء على كتف الصحـراء المترامية الأطراف ، ثم أطـلَّ القمر بـوجهٍ ضـاحكٍ مشـرق . . . عندئـذٍ خرج أبـو ذر من خيمتـه ليرتشف من أنفاس الندى عـطر الحب الـذي يـرسله ضوءُ القمـر عبر أشعتـه الفضيّة ، وليتّخـذ من ذلك السكون الناعم صومعته التي يتعبّد فيها ، ويرسل تأمّلاته التي تمتطي أشعة القمر ، متَّخـذةً منها جيـاداً تسلك بهـا طرق السعـادة وكان لا ينفـكُّ يتمتم : يـا لِشقاء قومي وبني عشيرتي . أيتركون عبادة خالق هذا الكون ويعبدون أصناماً نحتوها من حجارة بائسة ! ؟



وعلى هذا المنوال ، كان أبو ذر يمضي طوال الليل إلىٰ أن يغيب القمر ، فيعود إلىٰ خيمته وفي نفسه تجيش ثورة عارمة علىٰ كل ما تفعله قبيلته ، وعلىٰ كل الجهل والظلم المنتشرين في القبيلة .

وفي الصباح ، كان يجلس بانتظار عودة أخيه (أنيس) الذي ذهب إلى مكة . وطال انتظاره . . . وما أن يطل (أنيس) علىٰ فرسه قادماً من مكة ، حتى يركض نحوه أبو ذرٍ ، ويسأله ، متلهفاً ، عن أخبار مكة . فيقول أنيس :

ـ لقد خرج فيها رجل من بني هاشم يدَّعي النبوّة ، ويطالب قريشاً بنبذ (ترك) عبادة الأصنام ، ويوصيهم بعبادة الله الواحد الأحد ، خالق كل شيء . وقريش تسخر منه وتقول عنه ساحر ومجنون ، وقبل أن ينهي (أنيس) كلامه ، كان أبو ذرٍ قد امتطَى صهوة



جواده ، وغادر أرض غفار إلى مكة .

وفي مكَّة ، جعل يترقّب أخبار النبي ، فلم يجد من يدلّه عليه ، ولم يكن لديه مكانٌ يأوي إليه ، فطال به المكوث في بيت الله .

وكان علي بن أبي طالب (ع) كثيراً ما يذهب إلى الكعبة ، ويرى مكوث أبي ذرٍ فيها فيعرفُ فيه رجلاً غريباً لا مأوى له ، ولا بدَّ أن له حاجة لم تنقضِ بعد . . !

تقدّم عليٌّ من أبي ذرٍ وحيّاه ، ودعاه للمبيت عنده . . . وفي البيت ، قدّم له الطعام وأكرمه أحسن إكرام ، وأبو ذرٍ يكرِّر عبارات الشكر وعرفان الجميل ، ولكنه لا يستطيع أن يزيد علىٰ ذلك ، ويسأل عن الدين الجديد ، وعن النبي محمد (ص) لأنه لا يعرف علياً . وكذلك علي (ع) فهو يتوسَّم في

أبي ذرٍ كـل صفات المؤمنين ، لكنـه لا يستـطيـع أن يصرِّح له بأمر النبوّة ، فهو ما زال سرَّاً لا يعرفه أحد ولا يجهر به لأحد .

ويخيِّم الصمت ، وينقضي اليوم ، ويعود أبو ذرٍ إلى بيت الله . وفي المساء يراه علي (ع) وحيداً حائراً فيـدعوهُ أيضـاً للمبيت عنده ، إلا أن أبـا ذرٍ يرفض . وتحت إلحاح علي (ع) يقبل أبـو ذرٍ ، شرط أن يـدله علىٰ أمرٍ في نفسه سبّب له كل هذه الحيرة والعذاب .

وفي البيت ، يفضي أبو ذرٍ بالسرِّ الخطير الذي جاء من أجله إلىٰ مكة فيقول له علي (ع) :

ـ لقد بلغت مرامك . غداً أخرج أنا ، وتتبعني أنت من بعيد ، ثم تدخل البيت الذي أدخله .

وفي الغد ، خرج علي (ع) ، وتبعه أبو ذر عن بُعـد ، ثم دخـل وراءه دار الأرقم . . . ولم يكن مـع

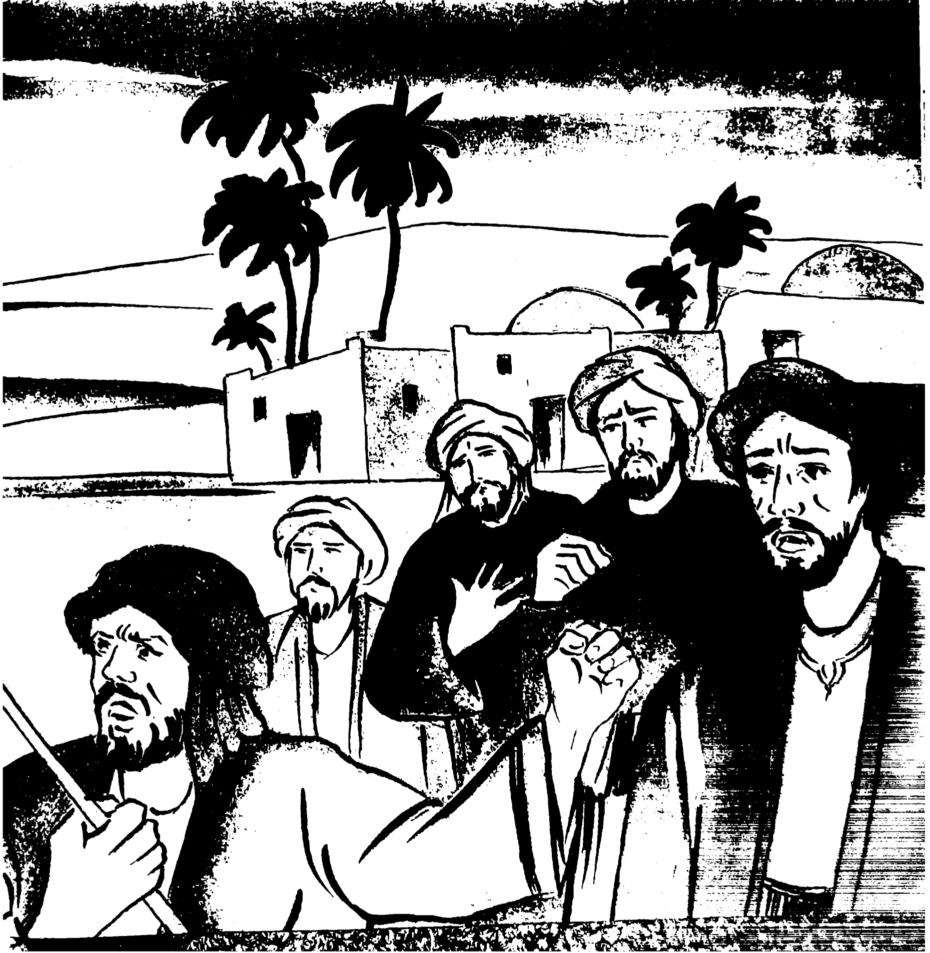
النبي (ص) ، آنذاك ، من المسلمين سوى رجـال لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة .

وفي ذلك اليوم المشهـود ، من حياة أبي ذرٍ ، حيث نال أمنيته وارتعش قلبه ، وهو يشهر إسلامه بين يدي الرسول الأكرم (ص) . وانفرجت أسارير الرسول بِشْراً ورحمةً . . . وأوصىٰ النبيُّ (ص) أبا ذر أن يكتم إسلامه إلىٰ حين ، فأمْر الدعوة مازال سراً .

وأمضى أبـو ذرٍ أيامـاً هي أسعد أيـام حياتـه ، بجانب الرسول ، يتعلم منه العقيدة ، ويستمع آيـات القرآن الكريم ويحفظها ، ويرتِّلها فَرِحاً جذلاً .

وتمرُّ الأيَّامُ ، وأبو ذرٍ يرى كلَّ يوم المشركين في الكعبة يعبدون الأصنام ويقدّمون لها القرابين والنذور ويهمُّ بـالصـراخ فيهم ليـدعـوهم إلى عبـادة الـواحـد القهّـار . إلا أنه يتـذكّر أمـر رسـول الله بكتمـان أمْـر الدعوة .

وبمرور الأيام وتكاثر عدد المسلمين ، لم يكن بإمكان أبي ذرٍ البقاء صامتاً ، لذلـك وقف في رحاب الكعبة ليجاهر بالإسلام ويرفع صوتـه عاليـاً مدويـاً :



أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .
وقبل أن يتم كلامه ، تتناوشه أيدي المشركين بالسياط والضرب ، ولو لم يأتِ العباس بن عبد المطلب ، عم



النبي ، ليخلصه من بين أيديهم لقضوا عليه ضرباً .

ولا تـردع أبا ذرٍ تلك السيـاط والضربـات التي آلمته كثيراً فيأتي البيت ، في اليوم التـالي ، ليجاهـر بإسلامه ويصرخ في وجه المشركين ، ويتكرَّر المشهد نفسه وينقذه العبّاس من السياط والضرب .

وتبدأ الهجرة ، فيهـاجر بعض المسلمين هـرباً من جور قريش ، ويطلب النبي من أبي ذرٍ أن يذهب إلى أهله وبني قومه ليدعوهم إلى الإسلام .

فَرِحَ أبو ذرٍ بهذا الأمر أشدَّ الفرح ، إذ سيحقّق أمنيته وتهدأ نفسه الثائرة علىٰ أوضاع بني قومه ، ومـا يرزحون تحته من أغلال الجهل والظلم والقهر .

ويبدأ أبو ذر بأهله الذين سرعان ما تلين قلوبهم للإسلام فتؤمن أمه ويُسْلِم أبوه وأخـوه ، ومن ثَمَّ أبناء عمومته .

ويتمكّن أبو ذرٍ من إقناع شيخ قبيلة غفار بحجَّته القويَّة وبيانه الرائع ، فيدخل ذلك الشيخ الإسلام . وتدخل معه قبيلة غفار في الإسلام فترتاح نفس أبي ذر وتهنأ عشيرته بالإسلام ، وتدخل في حلف مع رسول الله بعد هجرته إلى المدينة . . ويبقى أبو ذرٍ يتابع أخبار رسول الله ، وهو في شوق شديد إليه ، خاصة عندما يسمع أخبار المعارك التي يخوضها الرسول ضد المشركين فتأبى نفسه أن يكون بين أهله وعشيرته والمسلمون يخوضون أشرس المعارك ضد المشركين .

وفي سحر إحدى الليالي ، نادَى أخاه أنيساً ، وقال له :

- إنّي مغادر غداً إلى المدينة . أريد أن أكون إلى

جانب رسول الله (ص) ، أحفظ عنه الرسالة وأجـاهد معه .





ثم ودّع أخاه ، وركب فرسه يحث الخطى نحو المدنية ، وما أن دخلها حتى أحسّ بالإنشراح والغبطة .

وتذوّق لأول مرّة لذَّة الحياة ما بعدها لذّة ، فالعيش بقرب رسول الله (ص) له أثر طيب في الأيام ، فتغدو أياماً سعيدة ما بعدها سعادة ! والتعلم من النبيِّ يزيد هذه السعادة ، ومتابعة نشوء الإسلام ونموّه في النفوس وأثره في المجتمع وانتصاراته ؛ كل ذلك كان يعطي لحياة أبي ذر في المدينة معنى له طعم العسل وعطر الياسمين .

هكذا كانت تمرُّ الأيّام بقرب رسول الله ، وأبو ذر لا يكاد يفارقه ويحرص علىٰ أن لا تفوته كلمة يتفوّه بها النبي في كل الأوقات ، في الحرب والسلم ، في مجالسه العامة والخاصة .

أمـا النبي (ص) فكان أبـو ذر يحـظىٰ بمكـانـة خاصة عنده فهو واحد من أهم الصحابة الذين يعتمد عليهم الرسول (ص) في كل شيء .

وحين توافي المنيّة رسُـولَ الله (ص) ، ويذهب للقاء ربّه ، يتـرك ذلك أثـراً بالغـاً في حياة أبي ذرٍ . فمنذ ذلك اليوم ، تهجر البسمة شفتيه ، ويغزو الحزن قلبه ، فيقيم فيه ولا يـرحل . . . ومنـذ ذلك اليـوم ، يزهد أبو ذرٍ في الحياة إذ انه يفتقد تلك السعادة التي كان يعيشها بقـرب رسول الله . ومـا من أحد يعـوِّضه عنها .

وفي عهـدِ الخليفة الأول أبي بكـر الصـديق ، عاش أبو ذرٍ حياة مستقرة . احتفظ له أبو بكر بمكانتـه وموقعه من الرسالة وأهميّته وبوصفه صحابياً كبيراً من

أجلِّ الصحابـة . وكان يمـارس دوره المهّم في تبليغ الرسالة وإرساء قواعد الدولة الإسلامية العادلة .





وحدث الأمر نفسه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يحترمه ويجلُّه ويستشيره ويأخذ برأيه .

أما في عهد الخليفة عثمان ، فقد اختلف الأمر كثيراً ذلك ان أقارب عثمان من بني أميّة وبني الحكم ، طغوا وبغوا ، واستأثروا بالخلافة وجعلوها ملكاً لهم ـ فراحوا يتصرّفون في أموال بيت مال المسلمين كما يشتهون ، وكما تسوِّل لهم نفوسهم التي لم تتأثر بالإسلام ولم يكن إسلامهم إلا نفاقاً ورياءً ومداراة . وكانوا يترقّبون الفرصة للإنتقام من الإسلام وما أن واتتهم الفرصة بخلافة قريبهم عثمان ، وقد استثمروا ضعفه وعطفه علىٰ أقاربه ليحوِّلوا الدولة الإسلامية إلى مملكة تتحكَّم بها العصبية الجاهلية ،

ويؤثرونها لأنفسهم . . وأبو ذر يرىٰ كل ذلك ويتألّم أشد الألم . فها هو أبو سفيان وابنه معاوية وبنو أمية وأغلبهم من المنافقين ، يستأثرون بأموال ومناصب الدولة ، ويتحكّمون برقاب الناس ، وها هو مروان بن الحكم وأخوه الحارث يعيثان فساداً في كل شيء . ويفعلان ما يحلو لهما دون رادعٍ أو وازع ، وما من مسلمٍ لا يعلم من هم أولئك الذين يتحكّمون الآن في مصائر المسلمين . إنّهم الفئة التي حاربت الرسول أشدَّ الحروب ولم تدخل في الإسلام إلّا عنوةً ورياءً .

إذاً ، ها هو مروان بن الحكم ومن هم مِن أمثاله ممّن غضب عليهم رسولُ الله ولعنهم ، ها هم يتحكّمون في رقاب الناس ويبعدون المؤمنين الصلحاء عن مجلس الخليفة عثمان ، ويقرِّبون المنافقين والفاسدين . .

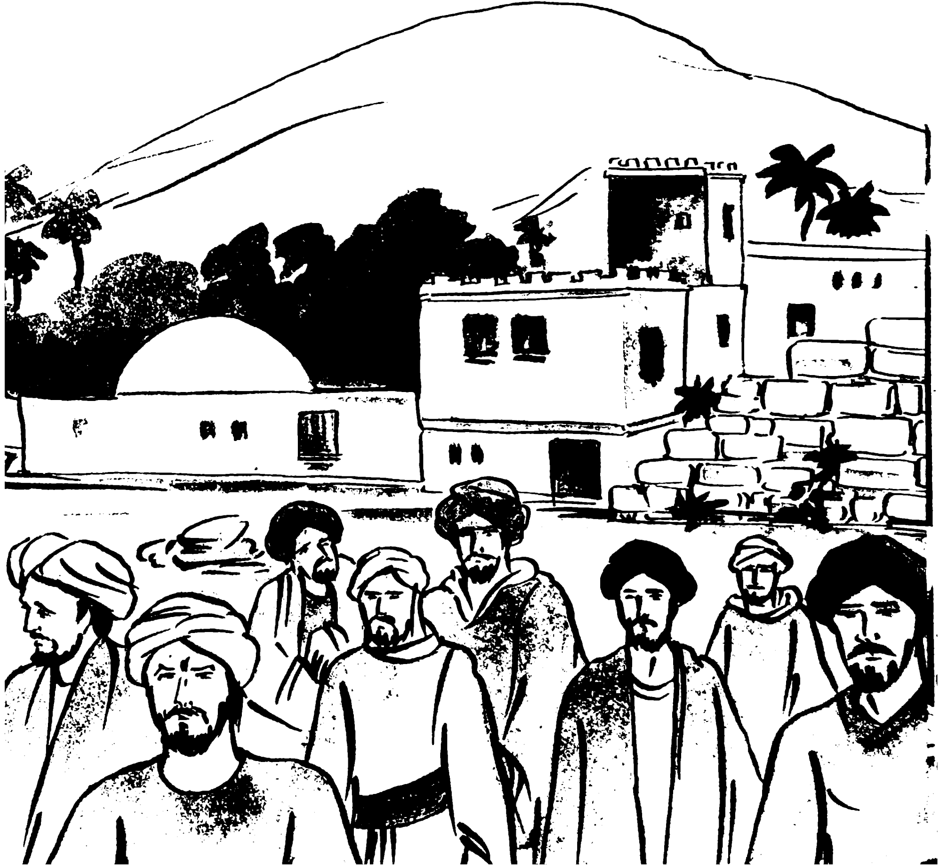


وأبـو ذرٍ يغلي بالغضب للحق الـذي استبيح ، والشريعة التي بـدأت تنهار . وكلمـا رأىٰ أفعال تلك الطغمة الباغية ، كلما تأجّجت الثورة في نفسه .

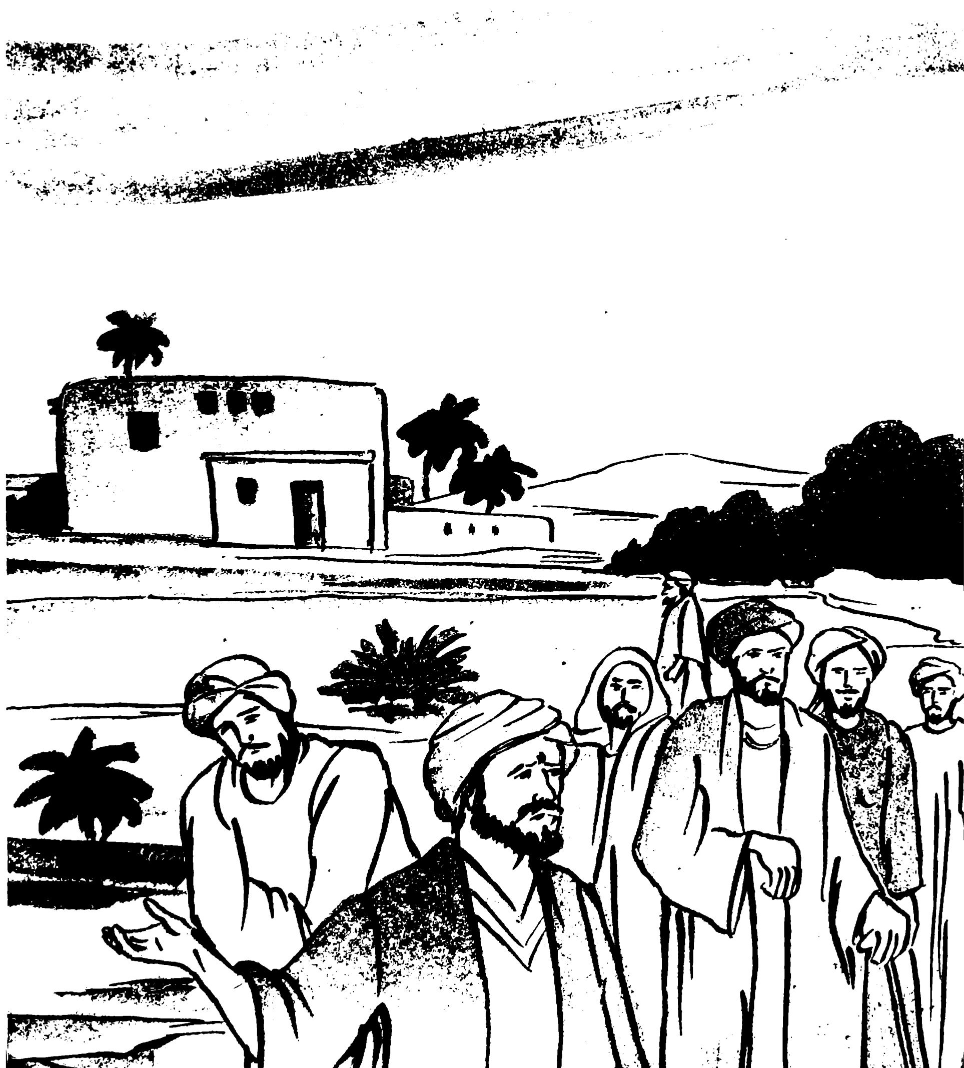
وكان لابدّ لأبي ذرٍ من ان يعلنها ثورةً لا هـوادة فيهـا ، ثورة علىٰ هؤلاء الـطغاة الـذين استولـوا علىٰ الحكم ، ونصَّبوا أنفسهم ولاةً علىٰ أمور المسلمين . فـراحـوا يحكمـونهم بـالحـديـد والنـار ، والبغي والجبروت .

في البدء وقف أبو ذرٍ علىٰ باب الخليفة عثمان محـاولاً ان ينصحه وينبِّهـه لكـل مـا يحـدث في دار الخلافة ، إلا ان تلك الزمر ، الباغية كانت أقوى منه وقد سيطرت كليّاً علىٰ الخليفة حتى انه لم يعد يسمع شكاوى المسلمين ونصائح المخلصين من الصحابـة

وعلى رأسهم أبو ذر ، بل زاد من البلاء ان تلك الزمرة
استطاعت أن تؤلِّب الخليفة علىٰ أبي ذرٍ الـذي راح



يفضح أعمالهم وجرائمهم في المجالس والأندية العامة ويحذّر المسلمين من المصير الذي سيؤول إليه



الإسلام علىٰ أيدي تلك الزمرة الباغية وحاول الخليفة ان يسترضيه في بادىء الأمر ، وأرسل له مالاً كثيراً إلاَّ ان أبا ذرٍ رد المال وازداد سخطه ، وتمادى في فضح أعمال السوء التي كانت ترتكب .

وراحت المدينة كلها تتحدَّث عن ثورة أبي ذر وتردد كلماته ، مما اضطر الخليفة إلىٰ ارساله إلىٰ الشام لعلّ معاوية يجد حلاًّ معه .

إلا ان معاوية بن أبي سفيان ورغم ما عرف به من مكر ودهاء ، لم يتمكَّن من وضع حدٍّ لثورة أبي ذر ، بل أصبح أبو ذر يشكلُ خطراً عليه . فها هي الشام تسمع لأوَّل مرّة كلمات أبي ذر عن حقوق الفقراء التي يغتصبها معاوية . . . وها هم أهل الشام يتحدَّثون عن أعمال الفسق والفجور التي يرتكبها معاوية وزمرته . ولم تنفع كل أساليب معاوية مع

أبي ذرٍ حتى إنه اضطرّ أن يتخذ قراراً بقتـل أبي ذر . إلّا انّه لخشيته ان يغضب عثمـان من هذا العمـل لم ينفِّذ قراره ، وعندما ضاق ذرعاً بأبي ذر أعاده إلى مكة على أخشن مركب ، ويجدّ به السير ليلَ نهار ، حتى انه عندما وصل إلى المدينة تسـاقط لحم فخذيـه من شدة الجهد وطول المسير .

ويقـوده الجـلاوزة مكبّـلاً إلى مجلس الخليفـة الذي يتهدَّده ويتوعّده ثم يطلق سراحـه ، ويطلب من الناس ان تقاطعه ، وكل من يكلِّمه أو يستمع إليه يلقى عقاباً . . .

إلّا إن ذلــك لم يـوقف أبـا ذر ولم يحـد من ثورته ، ويتمكن مروان بن الحكم من اقناع الخليفـة

عثمان بنفي أبي ذر إلى أرضٍ مقفرة لا يسكنهـا أحد ويتمُّ له ما أراد ويأمر الخليفة بنفي أبا ذر إلى الربذة .





(الربع الخالي) ويأخذه مروان بن الحكم ليرسله إلى منفاه ولم يتمكن أحد من وداع ذلك الصحابي الجليل سوى علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعمّار بن ياسر الذين ودَّعوه بلوعة وحرارة .

ويتحقق لبني أمية وبني الحَكَم وكل المنافقين مرادهم ، وتعم الفرحة أوساطهم . في الوقت الذي يذهب فيه واحد من أعظم وأحبّ الصحابة إلىٰ رسول الله يذهب إلى منفاه الأخير مع زوجته وحيداً فريداً . ويعيش في تلك الأرض المقفرة الجرداء التي ليس فيها أنيس ولا جليس إلى ان يوافيه الأجل ويدنو موعد لقاء ربّه مظلوماً ، محتسباً ما أصابه عند الله . . .

ويبقى صوته يجلجل في المدينة ولا يتمكنّ أحدٌ أن يسكته . . . .

ـ « فوالله لئن أرضي الله ـ بسخط عثمان ـ أحب
إليّ وخير لي من أن أسخطَ الله برضىٰ عثمان » .